الآثار الإسلامية في الأندلس

للدكتور أحمد فكري
مصر

لست أعرف فناً من الفنون خلد من الآثار مثل ما خلد الفن الاسلامي سواء من حيث العدد أو التنوع ولم يتح إلى اليوم لرحالة أو عالم من علماء الآثار أن يزور الآثار الاسلامية كلها ، فهي تنتشر في جزء كبير من المعمورة ، يمتد من بلاد الهند إلى بلاد الأندلس ، وتحوى كل بلد من البلاد الاسلامية ، عدداً تحده مئات السنين ، ويقصر عن الاحاطة به ، وما وهب الله الانسان من عمر مديد .

ولهذ ، فموضوع الآثار الاسلامية شاسع لا حد له ، والحديث عنها طويل لا نهاية منه ، وقد اخترت أن أحدثكم هذه المرة عن الأندلس ، وعما شاهدته فيها من آثار .

وكلكم يعرف ما أحاط بمدينة الأندلس من قصص وأساطير ، يكاد المرء يحسبها خيالاً ، أو يفترض المغالاة ، فيما ذكرته أحاديث المؤرخين، عمن أظلتهم هذه البلاد ، من رجال ، بارزين في العلم والأدب والدين ، والفن والفلسفة والسياسة ، وفي كل نواحي الحياة والتفكير .

لم يمض قرن على الهجرة ، حتى كانت جيوش المسلمين قد وصلت إلى غرب أوروبا ، واحتلت الجزيرة ، ودانت لها البلاد دون كبير عناء ، وظلت الأندلس أكثر من أربعة قرون ، قوة حيوية عظيمة ، في هذه المنطقة من العالم .

ومضى نصف القرن الأول، والمسلمون منصرفون إلى تنظيم أمورهم في هذه البلاد ، وتدعيم حكمهم عليها ، فشغلهم ذلك عن العناية بالفنون .

إلا أنه ما لبثت الفنون ان ازدهرت في الأندلس ، بتولي عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها ، والخلافة عليها ، وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير، في تاريخ الأندلس ، وفي التاريخ عامة .

وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، انها كانت أم المدائن ، وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ، ومعدن العلماء ، وانها كانت أهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المباني والعمارة، كثيرة الرياض والبساتين ، وان بها جامعاً، ليس في بلاد الاسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء ، واتقن صنعة .

ولم يخطىء المؤرخون أو يغالوا ، فما زال مسجد قرطبة ، أفخم المساجد القائمة وأعظمها .

أقامه عبد الرحمن بن معاوية، سنة ٧٨٦ ميلادية، على انقاض المسجد العتيق، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى في عصر عبد الرحمن الأوسط ، سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية في عصر الحكم المستنصر بالله ، سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة على عهد المنصور، ولي الخليفة هشام بن الحكم ، بعد ذلك بست وعشرين سنة ، وقد تضاعفت مساحة المسجد في هاتين المائتين من السنين ، ما يقرب من ثلاث مرات .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها ، سبعة أمتار تقريباً، ما عدا رواق المحراب، فعرضه يقرب من ثمانيه أمتار، ويحف بالأروقة من كل جانب، صف من الأعمدة ، رص عليه منها اثنان وثلاثون ، فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين اسكوباً ، حتى يصل إلى المحراب ، وعرض الأساكيب ، يقرب من ثلاثة أمتار لكل منها .

وجدار القبلة في المسجد ، يمتد على مائة وثلاثين متراً،أما أسواره الجانبية ،

فطول كل منها مائة وثمانون ، أي انه مستطيل ، يزيد طول مجموع أضلاعه ، عن ستمائة متراً .

وبالمسجد تسعة عشر باباً ، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة ، الباقي إلى البهو . أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده ، لأكثر من خمسة وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد ، لما يقرب من نصف هذا العدد .

وتمتد في بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السقف ، وتظل من تحتها مساحة أربع افدنه ، هي مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام ، تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته ، مما لم يصل اليه أي مسجد آخر من مساجد الاسلام ، فان العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ، ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعـــة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، وتدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة لجميع أطرافه ، ويخيل اليـه انه يتجول في غابة شاسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للاسلام ، وجلب البعض الآخر من بلاد الغرب الأقصى ، ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسي في شيء ، ولكن ابداع هذا الفن يتجلى أولاً في تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجـلال ، ويتجلى ثانياً في ابتكار موفق توصل اليه بناء المسجد الأول ، في عصر عبد الرحمن بن معاوية ، ذلـك أن الأعمدة الـتي استعان بها هذا الأمير في اقامة مسجده ، قصيرة ، بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمد على هـذه سقف المسجد ، وان امتدت هذه السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء ، ولا الهواء ، إلى بيت الصلاة ، إذ انه يخلو من النوافذ ، ولا يصل اليه الضوء إلا من البهو وجدار القبلة ، كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً ، وقد هدى

البحث بنّاء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة ، دعائم فيتضاعف ارتفاعها ، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً ، توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة ، وأقام بين رؤوس الأعمدة صفاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم ، وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى ارجاء بيت الصلاة ، حتى بعد امتداد هذا البيت ، وابتعاد المحراب ، عن البهو ـ الذي هو منبع الضوء لهذا البيت ـ بما يزيد عن مائة من الأمتار والفضل في هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة ، وهذه الفكرة التي اتبعها البناة في مسجد قرطبة ، عند زيادته في العصور التالية ، لم يكن لهـا نظير ، في أي بناء سابق .

ولهذا البناء المبتكر شأن كبير في العمارة الاسلامية ، فهو لم يكتف بهـذا الابتكار واضاف اليه ابتكار آخر ، ذلك ان الحجارة لم تكن وفيرة عنـد شروعه في البناء .

فاحتال على ذلك باستخدام الآجر ، ولكنه استعان على وجـه جعل عقود مسجد قرطبة ، فريدة في التاريخ ،تتناوب فيها ثمانية قطع من الحجارة البيضاء، مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر ، وكان لهذا مظهر زخرفي جميل ، انتشر في العمارة الاسلامية وآخذة عنها البناة في أوروبا في العصور الوسطى ، وهـذا المظهر الزخرفي من غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب في الألوان ، لم يكن له نظير في أي بناء سابق وبالرغم من بساطة الفكرة ، ففضل ابتكارها يرجع إلى بناء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى .

فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهي الشبيهة بحدية الفرس ، وهي عقود ابتكرها الفن الاسلامي في عناصر العمارة ، وعم استعمالها في بلاد المغرب والأندلس ، حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة في هذه البلاد .

وتلقى من العقود في مسجد قرطبة أشكالاً أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء ، تجـزأ العقد إلى ثلاثة فتحات ، أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من

الأزهار ترتسم في الفضاء ، وهذا عنصراً آخر من العمارة والزخارف ، يرجع الفضل إلى الفن الأندلسي ، في تنسيقه ونشره ، وكان هـذا العنصر محبباً إلى رجال الفن وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه في مكان الشرف من مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب ، وحول عقود قبته ، اننا قلما نلقى في العمارة الاسلامية عنصراً أجمل شكلا ، وأنقى حـدوداً ، ولا شك في أن الفكرة الأولى في ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار ، فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثـلاث أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر ، ولكن الهندسة تركت المجال للخيال فكأن هـذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوي في ارتقائها إلى القباب ، أو كأنها في الفضاء أهلة ، تعكس الضوء ، وتضيء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها ، من ناحية أخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجمع بأشكالها كلها ، بمثل الابـداع الذي اجتمعت به ، في المقصوره المجاورة لمحراب قرطبة ، والتي تنسب اليوم ، إلى القديس فرناندو ، في هذه المقصورة ارتقت العمد الواحد فوق الآخر ، كما ارتفعت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر اين تبتدىء ، وأين تنتهي ، ونلقي في الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدبة الفرس ، وأخرى على شكل ورقـة الزهرة ، المقصوصة إلى ثلاثة وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعاً من العقود المسننة قصى كأنه الصخر حفرته الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام ، من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة ، ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لا يكاد يصدقه العقل ، إلا أن هـذا الخليفة ترك في مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف في تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً ، وأجمل مظهراً في قبة المحراب الذي أقامها هذا الخليفة ، وهي على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين مؤلله ، مهلله كأنها تيجان ، صيغ فيها ياقوت ومرجان ، وابداع هذه القبة يعجز عن وصفها فلم يترك البناء ولم يترك الفنان ، ركنا فيها أو سطحاً إلا وكساه حلية جميلة أو أضاف اليه عنصراً يزيده جمالاً . ان دلت هذه القبة على شيء فهي تـدل على

سمة الخيال الفني عند البناء المسلم ، لقد استطاع أن يجعل من القباب وهي عنصر معماري شاق التنفيذ ، ثقيل التكوين، استطاع أن يجعل منها تاجاً محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة ، في هذه القبة ، وفي قبة مجاورة لها هيكلا جعل ما بين ضلوعه حشواً ، أو غلافاً رقيقاً ، هـــذا الخيال الفني يرى الجمال في كل شيء ، ويرى الجمال في الخفة والحركة ، حـتى في أشد العناصر تطلباً للثبات وفي أقربهـا للجمهور . ينصب الخيال عليها فيجزئها ، ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها، ويفرض على هذا كله فكرته في الطبيعة فكرة اللا نهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين انه « قـد قوس أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالجرة مقرطق،وبقوس قزح ممنطق وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ، فقد قيل أن الحكم طلب من امبراطور بيزنطة أن يرسل اليه بفسيفساء يحلي بها المسجد فأرسل اليه الامبراطور ما أراد وارسل مع قطع الزجاج المذهبة عاملا عليما بسر تنسيقها، وان هـذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس فما لبثا ان تفوقا عليه في صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجلي الأندلس مهارتهما ، في تعـلم هذا الفن الجديد ، أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذي أحكم اطار المحراب ، وابدع تنسيقه وحلاّه بالرسم وجمّله بالكتابة أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أن يتعلم رصها بمهارة . وهو هذا العامـل الأندلسي الذي أعد الجدار المحراب لوحات من الرخام منحوتة برقة فائقة ، ودقة ظاهرة تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، أو كأنها غلالة بديعـــة التطريز تتدلى على جدار المحراب .

ولن يمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ،وفي كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحي أمامه ذكرى الجلال والعظمة ، والخـــارج إلى

تأخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التي أحاطت بتجواله في الداخل ، ويرى في رسم العقود وجمال نسبها ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد دفعته إلى نزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهي تكسو الجدران بثياب ثمينة ، وكان نقوشها توقيعات تحت السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر ، امام احدى البوابات التي ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله ، امتلاء المسطحات على بوابة أخرى فلا يقع نظره إلا على لون زاهٍ أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو اطار بديع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع في مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها في حركة دائمة ، وتنوع مستمر يطرد الملل ويثير الاعجاب .

ومثار هذا الاعجاب باق على مضي السنين ، فمسجد قرطبة فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نلقي أثراً مثله ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها ، وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة على قول الشاعر .

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد ، أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق ، إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوروبا طابع الاسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الاسلامية ، لا يشيب وحدتها ، إلا ما أصابه من الهدم والاضافة عند سقوط قرطبة في ايدي الاسبان ، واقامة كنيسة في وسط بيت الصلاة ، لما رآها الامبراطور شارلمان ، حزن وغضب ، وقال للكهنة « أقمتم هنا ما يرى الناس مثله في كل مكان وهدمتم ما لا نظير له في العالم » .

وقد تعددت المساجد في الأندلس ، وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقرعنه في كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر في

مدينة الزهراء ، وهي التي أقامها عبد الرحمن الناصر ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، واستغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاماً ، وقدرت النفقة فيها ، بثلثمائة ألف دينار في كل عام ، وجلب اليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، وتضمنت العجيب من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كانما أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص،لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها .

أشار المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة ، في وصف بدائعها ، وكشف عن آثارها منذ أعوام ، وقد قرأت لكم ما كتبه المؤرخون عنها ، وكتب أحد علماء الآثار في اسبانيا حديثاً، قال ،« أن الحفائر في مدينة الزهراء ،تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة ما رواه المؤرخون » .

وقد تجولت بين آثار هذه المدينة مراراً ، وشاهدت موضع دورها ، وقصورها ، وبساتينها ، وجداولها، وبركها، وكثير مما تحدث عنده ابن خلدون وغيره من المؤرخين ، وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وانه ، لم يترك بها حائط ، إلا وألبس حلة من المرمر المسنون ، أو ألواحاً من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت ، بحيث تكون وحدها ، مجموعة شاملة للزخارف الاسلامية ، وأول ما يسترعي النظر فيها ، تصويرها للازهار والنباتات والثمار ، كأنما أراد رجال الأندلس أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة في بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها في دورهم ، فلا يفرغون من التأمل فيها .

ويدلنا هذا ، على ان الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ، فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر وادخال الروعة في القلوب، وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ، فقد اثبتوا أتباع الناس خلفاءهم ، في تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء ، وكانت الرحالة من المسلمين ، يضعون في الصف الأول ، فضائل البلاد التي وصفوها ما كانت تظهر عليه مبانيها ، من العظمة والفخامة وجمال التنسيق

وحسن الهندسة، ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس،وأطنبوا في ذكر آثارها، وعددوا مناقب مدنها، ومن بينها، سرقسطة. أصاب قصرها من صروف الزمن، ما لم يتبق منه الا طرف تأويها المتاحف. أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر، وعني ببنائه عناية تتضح من آثاره، ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه، ومن درجة الاتقان والدقة التي صنعت بها،ومن الخفة البديعة التي أفرغت فيها.وقد أخذت يد الفنان تتلاعب في الخطوط بحرية كبيرة،وأنصب الخيال عليها، فجعل من الأقواس والخطوط، شبكة ترتقي على الجدران، كأنها أغصان وفروع، تتناثر منها الأوراق والأزهار، وربط الخيال بالحقيقة، إذ أن الزخارف فرغت بالتخريم، فنفذ اليها الهواء، فكأنها أغصان، تهتز، وتتحرك، بخفة، وانسياب.

وإذا انتقلنا من سرقسطة،إلى قصر الحمراء في غرناطة،تجلى لنا الابداع بمظهر الثراء والفخامة، ويخيل بحق أن هذا القصر، صفوة ما أخرجه الفن الاسلامي في الأندلس، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس، مما كان يدور في هذا القصر، من الحوادث والأحداث. وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها، وحصناً منيعاً للسلاطين، أقيم في القرن الرابع عشر، على عهد اسرة بني الأحمر، أو بني نصر، أمراء غرناطة، واحتفظ بروائعه، بالرغم مما لحقه في التعديل، في العصور الحديثة. وهذه الروائع تتبعنا اينما حللنا به، وإذا مررنا بقاعة السفراء، انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد. تتدلى من السقف في كل مكان، حلية بهية من المقرنصات، كأنها أوكار في الأشجار، تتساقط على العمد كأنها أغصان، وترتقي العقود، في قاعة الخلافة، فكأن الطير يسكنها، وكأنه يغرد، في كل مكان. وقد شبهت هذه العقود، بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس في الأفراح. وما أحسب أن العمد في العمارة كانت يوماً ما أبدع مما تراها عليه، في الأروقة المحيطة ببهو السباع، ممشوقة المدن، رفيعة القوام. ولعل بهو السباع قد فاقت شهرته كل بناء، وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف، الذي بويع صبياً، ودام حكمه ما يقرب من أربعين سنة، استتب فيها السلطان لاسرة بني نصر، بالرغم من الدسائس

والثورات والحروب ، ونلقي صدى هذا الاستقرار ، في قصر الحمراء . اشتق هذا البهو اسمه من نافورة تتوسطه ، يقف عليها اثنا عشر تمثالاً من الرخـــام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجري من فوقـها وحولها ، بشكل يثير الاعجاب . وهذه النافورة انموذج لما كانت تحـويه قصور الأندلس ، وهي لا شك أقل فخامة من كثير غيرها ، فقد كانت في قصر الزهراء ، الذي ذكرته في أول الحديث ، نافورة صغيرة منقوشة ، ومنحوت عليها «اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، ويقول المؤرخون ،ان هذه التماثيل الذهبية ، كانت صوراً لأثني عشر حيوان وطائر مختلفة ، وكان الماء يخرج من أفواهها .

وجمال هذا البهو في الأروقة المحيطة به ، والـتي تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها ، وطالت أطرافهـــا ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذي يجمع بين هذين الشكلين ،وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ، ومزدوجة تارة أخـرى . وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ،وارتفعت من فوقها الحدائر ، حملت عمداً صغيرة ، تنبت منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هذه الزخارف المتناهية رقة واتقاناً ، يزيدها جمالا : تنوع ألوانها ، مـن أحمر قاتم ، وأزرق وأبيض ومذهب وأسود. وبقصر الحمراء صور آدمية ،رسمت على القباب ، تمثل احداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة مـن أساطير الحب ، وليس للتصوير في الاسلام نظير لهذه الصور .

ولكن الفن الاسلامي في الأندلس ، كان قد مثل الأشخاص قبل ذلـك ، بالتصوير والنحت ، مما اندثرت آثاره ، ولكنه مثلها أيضاً في تحف بديعة من العاج ، ويحاول العلماء أن يجدوا لهذه التحف أصلا اشتقت منه ، ووصلت به إلى هذه الدرجة من الاتقان ، وينتهي بهم البحث إلى الاعتراف بفضل ندين به إلى طائفة مجهولة من رجال الفن في الأندلس ، أبدعوا هذه الصناعة في القرنين العاشر ، والحادي عشر الميلادي .وكان الثراء قد بلغ أقصاه في الأندلس في هذا

العصر ، وكانت القصور تغص بالتحف من كل نوع ، من أخشاب وأقمشة وزجاج ومعادن وخزف، وتحتفظ متاحف العالم بالكثير منها، وقد فاقت شهرة التحف المصنوعة من العاج ، كل ما عداها ، لأن لا نظائر لها لي الفنون الأخرى .

وأهم هذه التحف صناديق ، وضعت للخلفاء والأمراء، وتعددت أشكالها، فهي تارة أسطوانية ، غطاؤها مقوس ، وأحياناً مستطيلة الشكل ، غطاؤهـا مسطح أو اهرامي . وتعددت زخارفـــها ، ففي صندوق من متحف اللوفر ، نحتت الحيوانات في غابة استبدلت بأشجارها الأزهار ،واستعدت السباع لالتهام فريستها . وفي صندوق من متحف مـــدريد ، وقفت الطيور على الأغصان ، وانتشرت الأرانب بين النباتات. والغالب أن هذه الصناديق تحمل كتابة كوفية جميلة ، أرخت عليها سنة صناعتها .

ولا تقتصر أهمية هذه التحف على مادتها وزخارفها وأشكالهـا ، فصناعتها تدل على دقة فائقة ، إذا عرفنا انها قطع صغيرة ، لا يتعدى قطر معظمها ثمانية سنتيمترات . والعاج مادة رقيقة نادرة ثمينة ، تتطلب من الدقة الزيادة ، ومع ذلك ، فصناعة هذه التحف تشهد علاوة على الدقة ، بالجرأة والاعـتزاز ، فقد حاول النحات أن يستخلص من هذه المادة الرقيقة ، أقصى ما يمكن أن تؤديه ، وحاول أن يهيء من مسطحاتها المنبسطة ،أشكالاً ، تعبر عن الأحجام والتجسيم . ونحـن نعرف أن هـذا ليس جديداً في الفنون الاسلامية ، وأن رجال الفن في العصور الفاطمية ، قد توصلوا إلى اتقان ذلك ، في لوحاتهم الخشبية المنحوتة ، ولكن النحت على الخشب غير النحت على العاج ، واستخدام لوحـات كبيرة ، غير استخدام صفحات مصغرة ، والشغل على سطح مستقم ، غير الشغل عـــلى سطح مستدير ، والخشب سميك ولوحـــات العاج رقيقة ، كل هذا لم يمنع صناع العـاج في الأندلس من أن يمثلوا الانسان والحيوان والنبات ، بشكل يؤدي فكرة التجسم ، وبطريقة التخريم ، التي تحيط الأشكال بظـل قاتم ، يخيل إلى الناظر اليها ، أن الفضاء يحيط بها من كل جهة ، وأن جوف اللوحـة فارغ يتخلله الهواء . ولم يصل الفن ، حتى في العصور الحديثة ، وبالرغم مـن اتقان آلات الصناعة ،إلى مثل الدقة والمهارة التي تنطق بها ،هذه التحف العاجية .

كانت جرأة هؤلاء الصناع اذن كبيرة ، في اختيار المادة التي أخرجوا منها هذه الصناديق ، وفي اختيار الطريقة التي اتخذوها أداة للتعبير عن فنهم، وكانت جرأتهم كذلك كبيرة ، في اختيار الأشكال والموضوعات. وقد رأينا أن أبدع ما أخرجوه هو في تمثيل الانسان والحيوان ، ولكنهم حرصوا أن لا يتعارض فنهم مع ما تمليه عليهم العقيده الدينية ، فالأشخاص ممثلة تحيط بها الطبيعة ، ولكنها تنحصر في اطارات هندسية تقربها إلى الخيال، وقت وضعت باحجام ، لا تصل إلى طول الاصبع الواحد ، فهي أبعد ما يكون عن محاكاة الخالق ، وقد صيغت من مادة، آلية إلى الزوال، مفتقره إلى الرم، منعدمة الروح والحياة.

أن الفن في الأندلس ، كما هو في جميع البلاد ، صورة نقية للجمال ، والحياة ، والمشاعر . هو صورة رفيعة للانسانية والمدنية . وانطوت صفحة المدنية في الأندلس ، ولكن بدائع الفن فيها ، قد نشرت هذه الصفحة ، وأحيت ذكرى ما كانت هذه المدنية عليه ، من مجد ، وفخامة ، ورخاء .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی